الادب السورى

وأثره فى النهضة المصرية الاخيرة

بحث نقـــدى يرى

القومية المصرية والقومية السورية — تقدم النهضة فى سوريا — مميزاتها نهضة مصر المتأخرة تنسخ نهضة سوريا — الخلاصة .

للاديب الناقد المفكر الاستاذ البحراوى

قد لاتؤدى كلمة « قومية » هنا المعنى الذى نود أن نطبعه فى ذهن القارىء ، فانا نقصد منها الناحية ، أو بعبارة أوضح الشخصية الادبية .

ونريد أن نقول إن المصريين شخصية أدبية تبقى صبغتها تحول بين الاندماج الكلى والفناء فى أية قومية أدبية أخرى ، بعكس اخواننا السوريين فسرعان مايندمجون ويفنون مدلولهم الاصيل ! وهم مع ذلك لن يملأوا هذه القومية الجديدة — التى تخلق لهم — ويسيرون بين الشخصيتين كالغراب الذى أراد أن يقلد الطاووس !

ولم نر — ولا نحسب القارىء — رأى — سوريا يتقن فنا من الفنون أو حتى لغة من اللغات اتقانا حسنا اللهم الا نادرا . فهو يعرف من كل مسألة طرفا بروح تجمية تجارية ولكنه لن يلم باحداها المامآ تاماً !

ولعل هذا هو السر فى الشيان الشاذ الذى نراه فى الادب السورى . فأنت تلقاه فى سوريا ساذج التفكير واضح البساطة ، وأنت تقرؤه فى مصر هادئا ممتدا ، وأنت تنظر فى أمريكا خيالا متفلتا يثب ويثب بجنون !

وكادت النهضة تقوم فى مصر بالحملة الفرنسية قبل قيامها فى سوريا لولا أن اتخذت الحملة مظهرا سياسيا عالميا طغى على ناحيتها الادبية ، ولو لاتعصب (عباس الاول ورجعيته ، وعبث (سعيد باشا) وعدم عنايته ، ثم لولا الظروف المالية السيئة التى أحاقت (باسماعيل باشا) لكانت النهضة فى مصر هاديا ومرشدا لسوريا أولا وأخيرا !

ولم يكن لاخواننا السوريين أي فضل في تقدم النهضة عندهم وإنما يرجع ذلك كله الى جماعات المبشرين ومدارس الارساليات الدينية التي أنشئت في سوريا إذ ذاك .

وقد قلنا إن قومية السوريين — نعني شخصيتهم الأدبية طبعا — سرعة تأثر بما يلابسها وتحاول أن تندمج فيه ، وهي لا توفق في أكثر الاحيان ، يدلك على ذلك الاختلاف الواضح في التفكير والاسلوب وحتى في الموضوعات التي يتناولها السوريون في كل من سوريا ومصر وأمريكا .

ففي الأولى — مثلا — تتجلى لك صفات الادب السوري الاصيلة وهي الفخامة أو الطراوة بل الاسترخاء — وعندها إنك لتجد كلمة أخرى تحمل الى القارىء المعنى الذي قصده في دقة وتحديد — تقصد الطراوة التي تكاد تسمى أنوثة ، ولين الاسلوب ، وسذاجة التفكير وإسفافه أحيانا . وهي صفات تلازم السوريين أينما وجدوا ، ولكنها تتغير بالبيئة والوسط وتتجلى في مظاهر شتى !

فهي في سوريا لا تحتاج الى تدليل : تلمسها عند أي شاعر أو أديب تعمد الى آثاره بل وتشهدها واضحة جلية !

أما في مصر فأنت تحسها عند السوريين المستجدين : أقصد حديثي العهد بمصر أو الذين تغلب عليهم طبيعتهم الاصلية وقد تؤثر ملابسة البيئة المصرية فتساعد على عدم ظهورها عند بعضهم الى حد ما .

وفي أميركا تسير النعومة واللين في قالب خيالي يهوى بك الى حيث لا قرار ولا نهاية وربما كان ذلك نتيجة لتفاعل الأدب الانجليزي الجاف مع الطبيعة السورية الليّنة

وقد يعجب المصريون — والشبان منهم على وجه التخصيص — بأدب جبران وأقرانه لان هذه الطراوة واللباقة والتفكك في ذلك الخيال المتوثب قد تستطرفها الرجولة الخشنة !

وقد يهم القارىء أن يعرف أني أريد ان استثني من هذه القاعدة ثلاثة من أركان النهضة هم : يعقوب صروف ، جورجي زيدان ، خليل مطران .

وهؤلاء أقرب السوريين إلى التخلص من هذه الطراوة التي يناها ويرجع ذلك عند كل منهم إلى أسباب : أما الدكتور صروف فقد كان في مبدأ الأمر — عند مهاجرته من سوريا — تتجلى عنده هذه العوامل بشكل بارز يلمسه من يقرأ مجلدات المقتطف الأولى ولكن طول مدة إقامته في مصر وتأثره بالقومية المصرية ثم اشتغاله بالمسائل العلمية التي اضطرته الى أن يرجع الى المؤلفات الاجنبية يدرس فيها

الابحاث العلمية الجافة ، كل ذلك ساعد على تخليصه من أسر الليان والمطراوة !

ولما أراد جورجي زيدان أن يكتب رواياته المعروفة في التاريخ العربي اضطر أن يلتزم المراجع الأدبية ويتأثر بخفافها وجدها وخشونتها . . ثم ان طول مدة إقامته في مصر واتصاله بالأدباء المصريين كان لهما أكبر الأثر في تركه لهذه الليانة نوعاً

ويمكنك أن تقول عن خليل مطران أنه مصري أكثر من كونه سورياً لانه متأثر بالبيئة والشخصية المصرية أكثر من تأثره بالقومية السورية . ثم إن دراسته لشكسبير وغيره من أدباء الانجليز لها أثر في هجره المطراوة والليان . .

ولكنه لما كان شاعراً . ولكن الشعر يحتاج الى بعض الرقة فهو أكثر من زميليه تأثراً بالطبيعة السورية . ومن ثم يعيب البعض على مطران الركة وضعف الأسلوب ونحن وان كنا لانميل إلى اتهام مطران بهذا إلا أننا نقول انه لايسلم في بعض الاوقات من مخلفات سورية وآثار طفى شعره . . ولعله يأنس من نفسه هذا فيجري في نثره أحياناً الاسلوب العربي الفج الجزل !

وإذا كانت مصر الآن هي المثال الذي تحتذيه سوريا وغيرها فقد يكفي هذا للدلالة على أن النهضة المصرية الحديثة تنسخ نهضة سوريا القديمة !

***

والخلاصة : ان البلاد السورية بطبيعتها راقية ناعمة . وأهلها قوم وادعون وإن كانوا غالبا ضعاف القومية . . وجاءت الشخصية الفرنسية تناسب المزاج السوري فنفيت فيها قوميتهم . وقد أصبح الأدب الفرنسي الآن أفقر الآداب العالمية بعد انصراف رجاله في الأزمنة الأخيرة إلى ناحية واحدة حسب هي الناحية الفيزيكية أي مايتناول نظم الوجدان والغناء . . ولا يخرج محور الأدب الفرنسي الآن عن دائرة العبث والمجون أما الملاحم الشعرية المجيدة . وأما الشعر التهذيبي والشعر الانساني وشعر القصص العالي فيكاد يحتضر في الأدب الفرنسي ، هذا إن لم تقم ثورة فكرية أخرى تغير مرامي هذا العبث وتدعو الى استئناف تشييد الصرح الذي تعب فيه هيجو ورستان واضرابهما من أدباء الدرامات الخالدة .

ونعساً للأدب السوري إن ظل مستمسكا بهذا المثل الفرنسي الماجن ولم يبحث عن ملهم آخر أكثر رجولة وأبعد عن المطراوة والليان فلعل هذا الاصلاح المأمول يتم بجهود النابغين من أدباء سوريا الناجين ؟

علي محمد البحراوي